هيكل
بين الطريقة والأسلوب

للأستاذ الشاعر محمود أبو الوفا

طلب إلى الأستاذ الفاضل صاحب «المعرفة» أن أكتب عن هيكل بك لمناسبة كتابه الذى ظهر حديثاً بعنوان « ولدى » وأنا أعلم ما بين صاحب المعرفة وبين هيكل بك من إعجاب متبادل : وليس يجهل صاحب « المعرفة » مابين شخصى الضعيف وبين الأستاذ هيكل من. من ما ذا . . لا أدرى .

ومهما أشك فيه أن صاحب «المعرفة» طويل ، ولكن حزمه ولا أقول مكره قصير [1]. فهو لأمر ما ـ لم يكتب أو لم يختر غيرى لهذا الأمر .

لقد أعلن لى فى صراحته ، أنه كان يحب أن يكتب عن هيكل بنفسه ، ولكنه يخشى أن يطغى جانب الحب والاعجاب والصداقة ،على جانب الحق الذى يحرص الحرص كله أن يجعله شعار مجلته ، وليت شعرى لم لم يخش صاحب «المعرفة» أن يطغى جانب «النفور المتبادل أيضاً بينى وبين هيكل » على هذا الحق الذى يحرص الحرص كله أن يجعله شعار مجلته ؟ يالله ! لا تؤاخذنى يا أستاذ عبد العزيز ، فالحق ان هذا كلام له خبىء ، وأنا أؤكد أنك لم تنتدبنى للكتابة عن هيكل الا توريطا ، وأخذ اقرار منى بالتأمين على كل ما تذكره عنه . . وأنت تحاول أن تمنعنى عن غمز قناة هيكل كلما جاءت سيرته ، ولكن اتعلم يا أستاذ ان كتابتى لن تقيدنى بشىء لأن الكلام عن هيكل شىء ، والكتابة عنه شىء آخر ، واذن فسوف أظل أقع فى هيكل على النحو الذى تعرف ، مادام بينى وبين هيكل هو ما تعرف .

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا على ولا ليا

***

للدكتور هيكل فى الكتابة طريقة خليقة أن تسجل فى تاريخ الأدب باسمه ، فيقال الطريقة الهيكلية ـ كما يقال ـ الطريقة الجاحظية أو العميدية أو البديعية أو الحميدية

ولعلها فرصة طيبة ، هذه التى تتيح لى أن أتكلم عن الفرق بين الكاتب من أصحاب الطريقة وغيره من الكتاب أصحاب الأسلوب .

---

(١) إشارة الى قصير المعروف فى قصة الزباء

فالكتاب من هذا الصنف الثانى ، هم الذين ينطبعون على الكتابة انطباعا حتى ليصل أحدهم بكثرة ما يؤلف وما يحبر إلى حد أن يعرف عند قرائه من غير أن يوقع بطغرائه .

قد يكون هذا شأن الكاتب ، ومع ذلك فهو مقلد فى صناعته ، محاك غيره فى براعته ، ومن هؤلاء يوجد العشرات بل المئات فى العصر الواحد ، بل فى المصر الواحد ، ولكل من هؤلاء حقه فى الفضل ونصيبه من كرامة الخلود .

أما الكتاب من الصنف الأول ، أعنى أصحاب الطريقة ، فهم الذين يشقون فى الكتابة طريقاً لم يسبقوا إليه ، ويعبدون منهاجا لم يذلله غيرهم ، فهم فى هذا العالم المعنوى ـ عالم الكتابة والخيال ـ أشبه بالرواد والمكتشفين فى العالم الحسى . وهم أشبه بالمشرعين أو المخترعين . وطبيعى أن هذا الصنف لا يوجد فى الأزمان إلا افراداً لأنهم يبعثون للحياة كما تبعث الرسل أو الزعماء للناس .

ولا يظنن أحد أنى فى تقسيم الكتاب إلى هذين القسمين بمبتدع . كلا ، فأمهات كتب الأدب قد سبقت إلى ذلك لو تتأمل ، ففى كلامها على عبد الحميد أو ابن العميد مثلا تقول : طريقة عبد الحميد فى ترسله ، وتقول أيضاً طريقة البديع أو طريقة ابن العميد الخ من طرق هؤلاء الأعلام . فهذه الكتب المعتمدة الدقيقة ، ما اختارت هذا التعبير إلا ملاحظة لأن هناك فرقاً بين الكاتب صاحب الطريقة وغيره من الكتاب الذين أسميهم أصحاب الأسلوب ، وأنا أؤكد أن هذ التعبير فى تلك الكتب لم يجىء عبثاً ، وإنما جاء للاشارة الى هذا الفرق بين هذين الصنفين من الكتاب .

ولعله من المناسب الآن ، أن نتوسع نوعا ما فى التنبيه الى هذا الفرق الدقيق الموجود بين لفظى : الطريقة والأسلوب ، فقد ألبس على كثير من الأدبيين الفرق بين هاتين اللفظتين حتى ظنتا بمعنى واحد ، والحقيقة أن بينهما فرقاً دقيقاً جداً ، ولكنه على دقته طويل عريض — إن طريقة الكاتب غير أسلوبه ، والطريقة على النحو الذى نريده ليس معناها الا الروح البيانية التى يمنحها الكاتب الموهوب ليصل بينه وبين الموضوع الذى يريد أن يكتبه ، يعنى هى المادة التى تتكون منها أفكار الكاتب ، أما الأسلوب فهو الأضواء الكشافة التى تصل بين الكاتب وقرائه ، فهو من الكتابة بمنزلة الجمال تحسه القلوب ، وقد تدركه أو لا تدركه العيون . أما طريقة الكاتب فهى فى أسلوبه الكتابى بمنزلة الغاز من

الضوء الكهربائى العجيب ، فأنت ترى أن تعريف الأسلوب على هذا المذهب ـ اذا كان يشتمل على قوة المعانى والمبانى معاً ـ فان طريقة الكاتب يجب أن تعرف بأنها عبارة : عن الأسلوب مضافاً اليه شيء آخر ، هو شخصية الكاتب بكل ما تشتمل عليه من مقومات الشخصيات، واذن فأثر الكاتب من أصحاب الأسلوب قد يصح أن يكون من عمل يده فقط أعنى من غير دخل لروحانية الكاتب فيه ، أما أثر الكاتب من أصحاب الطرق فانه ليس الا نفسه بكل ما فيها من حياة .

وشيء آخر من هذا الفرق الدقيق الذى يجب أن ننبه اليه فى تحديد هذين المعنيين ، معنى الأسلوب : ومعنى الطريقة : ذلك هو أن الأسلوب قد يوصف بالتعقيد ، ولا يراد من ذلك أكثر مما فى ألفاظه من التعاظل اللغوى ، أوما هو شبيه ذلك من عيوب الصنعة الكلامية، ومع ذلك فقد يفهم المراد من الكلام كله أو أكثره . أما الطريقة فاذا وصفت بالتعقيد ، فليس هناك الا اضطراب الموضوع على الافهام جميعاً أو فساده البتة ، وهذا طبعاً لا يرجع الا لأن الطريقة هى عبارة عن مادة الأفكار للكاتب بخلاف الأسلوب .

وفرق آخر يحسن أن يذكر ، ولا يصح أن يغفل بحال ، هو أن كاتب الأسلوب يستطيع أن يتنكر ويتخفى فى أى الأساليب شاء ، ولا يكلفه ذلك أكثر من عدم توقيعه على مايكتب ، وذلك بخلاف الكاتب من أصحاب الطرق ، فانه واضح دائما ، ومهما حاول التنكر فلن يستطيعه . لذلك أرى أن « هيكل » من خاصة أصحاب الطرق ، وليس من أصحاب الأساليب خاصة ، ومن هذه الناحية ، نعم ومن هذه الناحية فقط يجب أن ننظر اليه .

إن كل ما قرأته لهيكل ، وكل ما سوف أقرأه له أيضاً ، يؤكد لى أن «هيكل» ليس من الكتاب أصحاب الأسلوب ، وانما هو من أعلام أصحاب الطرق، ولذلك فان روحه الواحدة تملأ كتبه جميعاً ومقالاته على السواء، فكأنما هو يأبى أن يقدم لقرائه الا مائدة من صنف واحد ، ولكنها ذات ألوان متعددة ، فهم يلتهمون ما عليها التهاماً ، مرغمين بدافع من اللذة على أن يلتهموه ، وإن أحسوا فى الآخر جميعاً أنهم لم يأكلوا الا صنفاً واحداً من الطعام ، ومن هنا فان هيكل لايستطيع أن يتنكر أبداً . وأزعم أنه لو سكت عن الكتابة سنين ، ثم فاجأ الناس برسالة من انشائه ، لاستطاع أقل المتصلين بالأدب أن يتعرف عليه ، وأن يقسم أن هذا الانشاء انشاء هيكل ، وأن هذا البيان بيانه. بل لاستطاع يومئذ أن يراهن وهو على ثقة من ربح الرهان.

وماذلك الا لأن طريقة هيكل، أو بالأحرى مادته فى الكتابة، تنم عليه وتشف عنه أبداً ومن الحق أن نقرر أن «هيكل» يستمد طريقته فى كتاباته من الأضواء الثلاثة التى يتصل دائما اتصالا وثيقاً بها، هى أضواء العلم والفلسفة والفن، ومن هنا كانت كتابته مغذية للعالم والفيلسوف والفنان، وكل أولئك بمقدار، ومن هـذا المزيج العلمى الفلسفى الفنى تكونت طريقة هيكل، وبعبارة ثانية تكونت شخصيته الكتابية الفذة التى ورثت عن لطفى السيد بك ما ورثته من جميع مؤهلات الكاتب الزعيم، مضافاً لذلك ما اكتسبه هيكل من بيئته المصرية الفرنسية، ومن زمانه ومكانه المعروفين لكل معاصر.

إن طريقة هيكل الكتابية اذا لم تكن هى المثل الأعلى للكتابة العربية، فانى لاأتردد فى القول بأنها الخطوة الأولى الجريئة للمثل الأعلى الذى سوف يصل إليه الادب العربى حتما إنها أحد المشاعيل المقدسة التى نرى على أضوائها الفرق بين الأدبين: القديم والجديد. إن طريقة هيكل التى أودعها مقالاته وكتبه وعلى الأخص كتابه «ولدى» هى بحق احدى بواكير نوع الأدب العلمى الذى يجب أن يتطور إليه الادب العربى، لأجل أن يصبح أدبا عالمياً كما كان أو كما يجب أن يكون؟

محمود أبو الوفا

ذكريات من حياة الادباء

(بقية المنشور فى الصفحة ٦٠٤)

ولك ثلاثون قرشاً. فطارت بنا السيارة تسابق الرياح، ولكنى كنت أدفعه من ظهره صائحاً — أسرع ... أسرع ولك خمسة وثلاثون .... أسرع ... ولك أربعون قرشاً ... لم يبق غير مسافة قصيرة أسرع — ولك خمسون.

وصلنا الى باب الدار فرأيت والدتى خلف الباب، فما كادت تراها شقيقتى حتى ارتمت على صدرها ووضعت حملها عند أول درجة من السلم..

فتنفست الصعداء وقدهدأت أعصابى، ثم رأيتنى أغوص فى شبه غيبوبة وكأنى أسبح فى الفضاء على زورق من النور، وقد رأيت الطبيعة وقد تجلت بأجلى مظاهرها فى صورة غادة هيفاء، وهى تنشد فى أذنى بصوتها الرخيم:

وإذا صبرت لجهد نازلة فكأنه ما مسك الجهد (م. ص)